التجديد في الشعر الأندلسي قراءة في نماذج مختارة

أ.م.د. خالد عبد الكاظم عذاري الماجدي
جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

المقدمة :

يُعد الشعر الأندلسي صفحة مشرقة ضمن الموروث الأدبي العربي الكبير، الذي لا يمكن الاستغناء عنه وعن تجارب شعرائه، الذي حاكى في أغلبه الشعر العربي المشرقي، محاولة لمجاراة الحياة الثقافية العربية الأم في المشرق، فاستحضروا صوره ودلالاته وأبعاده، وهذا عينه ينطبق على الوشّاح الأندلسي، الذيلم يختلف كثيراً في مسيرته الإبداعية عن الشعراء في محاولاتهم الإفادة من الموروث والبناء عليه لخلق الجديد الذي يتناسب والحياة الأندلسية الخاصة، فيما سمي بمحاولات التجديد والإبداع.

وفي هذا البحث سنحاول الوقوف على نماذج من الشعر الأندلسي التي اراد اصحابها الانطلاق فيها نحو محاولات الخروج من قيد التقليدية الى الابداع والتجديد وسنعرج في بعضها على محاولات التجديد البارزة التي اجاد فيها الاندلسيون تجسيد بيئتهم وحياتهم وواقعهم المتحضر بعيداً عن البداوة والصحراء، لاسيما في وصف الطبيعة والخمريات، والغزل، والرثاء، والموشحات، التي يمكن ان تعد فناً ابداعياً جديداً، محاولين اثبات رغبة الاندلسيين في التجديد والابتكار والابداع ودوافعهم في ذلك.

The New in the Andalusian Poetry: Reading into Selected Samples

Asst. Prof. Dr. Khalid Abdul-Kadhim
Department of Arabic Language, College of Education for Human Sciences, University of Basrah

Abstract

Andalusian poetry is considered as a bright stage in the literary Arabic heritage. Hence, we can't neither dispense with it nor with the expertise of its representative poets. The Andalusian poetry resembled the Eastern Arabic poetry in a trial to swim with the tide of mother cultural life in the east.

This research investigates samples of the Andalusian poetry whose poets tried to revolt against the classic ways of versing. The poets started novel and creative ways of poetry writing which represented their environment, life, and their urban reality that was far away from the Bedouin life of the desert. They tackled themes like nature, alcohol, lyric, elegies and sonnets which are considered new creative artistic genres.

Keywords: Andalusian poetry, sonnets, elegies

الأندلسي والتجديد :.

إنّ الشعر العربي في الأندلس ما هو الا امتداد للشعر العربي في المشرق، فقد تشابهت معاني الشعر الاندلسي أول الامر ومعاني الشعر العربي في المشرق في الاغراض والالفاظ والمعاني، وما هذا الا لان الشعر الاندلسي في أوله لم يكن الا شعرا مشرقيا خالصاً، إذ لا شعر اندلسي بمعنى الكلمة ولا شخصية اندلسية خالصة، فالشعراء هم مشارقة والافكار والقيم والتعابير والاسلوب مشرقي خالص، فلا يمكن ان نسمى الشعر في أول الامر بالأندلسية مطلقاً، فقد احتاجت الشخصية الاندلسية حتى تتسم بسماتها الخاصة الى وقت طويل من التأثر بالبيئة المحيطة والتأقلم معها واكتساب صفاتها والامتزاج بها، كل ذلك الوقت ساهم في انضاج الشخصية الاندلسية التي حاولت فيما بعد اثبات وجودها.

حين دخل العرب بلاد الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري، لم ينسوا شاعريتهم التي امتازوا بها بل ساعدتهم البيئة الجديد على انمائها وترقيتها، فتأثر بها حسهم وانفعلت بها نفوسهم[١]، ولكن هذا التأثر والانفعال بالبيئة الجديد لم يكن في أول عهدهم بالفتح، فالبلاد غريبة عن العرب والمناظر مختلفة عن مناظر الصحراء وعادلات البلاد وتقاليدها مختلفة عن عادات الصحراء وتقاليدها فهم يحتاجون الى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة[٢].

كان الشعر الاندلسي عقب الفتح الاسلامي غير متميز الملامح مجهول الهوية، لذا عاش الاندلسيون في الحقبة الاولى عالة على شعر المشارقة، حتى من تصدى منهم لقول الشعر في أول الامر كان مقلداً في الشكل والمضمون[٣]، من ذلك نستمع لقول الشاعر ابي الخطار حسام بن ضرار الكلبي[٤]:

فليت ابن جواس يُخبرُ أنني ... سعيت به سعى امرئ غير غافلِ
قتلتُ به تسعين يحسب أنهم ... جذوع نخيل صرعت في المسايلِ
ولو كانت الموتى تباع اشتريته ... بكفي وما استثنيت منها اناملي

فهذا الشعر وامثاله يجري في صياغته على اسلوب تقاليد مدرسة المشرق المحافظة، إذ يعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة وبداوة الصورة التي لم تتأثر بعدُ بالحضارة الجديدة، ولم تصهرها رؤية الشاعر الاندلسية الساحرة وانفعاله بجمالها[٥].

لقد دخلت حركة التجديد الى الشعر الاندلسي بمرور الوقت بعد الاستقرار السياسي والاجتماعي في البلاد وتمركز الحكم فيها واحساس الشعراء بالبيئة الجديدة وانعكاس ذلك في اشعارهم رقة وعذوبة ولطفاً، وابتعدوا عن البداوة التي كانوا عليها الى شعر محدث جديد، وكان للطبيعة ومشاهدها الجميلة الحضور العظيم في الشعر الاندلسي، فتبدلت الطبيعة الصحراوية الجافة بطبيعة خصبة خضراء قد افاض الله عليها كل نعم الحياة والجمال فكانت تسر الناظرين وتسعد القلوب وتبهج النفوس، فكان الشاعر ينشد قصيدته فيها وكأنها هي القصيدة[٦].

والذي نفهمه ((أن معنى التجديد في الشعر لم يكن تجاهل التراث الشعري للامة والبدء من الصفر، بل التجديد الحق الذي يكون عن بصيرة ووعي وهو الذي يعمد الى هضم التراث واكتشاف كل وجوانبه

المضيئة ثم البدء بالتجديد من ابعد نقطة وصل اليها التراث مجال التجديد ومادته))[٧].

يمكننا القول ان كل الاغراض الشعرية التي حاول فيها الشعراء الاندلسيون التجديد لأثبات حضـــورهم ومجاراتهم للمشرق كانت متأثر دائماً بالبيئة الاندلسية، إذ كانت المؤثر الاول والدافع القوي الذي حرك احساس الاندلسي للأبداع والتجديد، وقد بدى ذلك واضحاً في معانيهم والفاظهم وصورهم واسلوبهم.

١- وصف الطبيعة:

شعر الطبيعة في الأدب العربي لم يأت مصاحباً لفتح المسلمين للأندلس بل هو قديم قدم اللغة العربيـــة، ففي الجاهلية كان مرتبطاً اوثق ارتبا بالبيئة البدوية التي يحياها الشاعر العربي حين يتصـــفح معالمهـــا ويشم عبيرها ويتفاعل معها بحواسه وعقله ومشاعره ووجدانه، لقد وصف الشاعر الجـــاهلي الطبيعـــة الحية والصامتة وصفاً دقيقاً قائماً على شدة الملاحظة، غير انه لم يكن وصفاً قائماً بذاته متميـــزاً عـــن غيره بل جاء منبثاً في قصائد المديح والغزل وغيرهما من فنون الشعر العربي، اما في الشعر العباسي فقد تور شعر الطبيعة إذ جاء معبراً عن مظاهر الترف ومصوراً للحياة اللاهية التي شاعت وانتشـــرت في المجتمعات العربية نتيجة لامتزاج العرب بالفرس وسائر الاجناس الاخرى[٨]، ولم يمـــزج الشـــاعر العباسي وصفه غالباً بما يحسه نحوها من مشاعر لذا ظل وصفه لها وصفاً مادياً وخارجياً وصفاً يقـــوم على الصورة البصرة دون غيرها من الصور الاخرى.

واذا ما جئنا الى وصف الطبيعة في الشعر الاندلسي الذي امتاز بمزج المادي بالإحساس الوجداني، اي المزج بين ((الوصف الوجداني والمادي))[٩]، الذي يعد تطوراً ملحوظاً في هذا الغرض الذي ابدع فيه الشاعر الاندلسي دون سواه، وهذا التطور والابداع لم يأت من فراغ مطلقاً بل نبتت جـــذوره وأصـــوله في المشرق العربي وترعرع وازدهر في الاندلس، فكانت المقدمات مشرقة والنتـــائج اندلســـية، اذ ان الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها.

لقد ابدع شعراء الاندلس في موضوع الطبيعة فكانت القصيدة الخالصة في وصف الطبيعـــة والقصـــيدة الممزوجة بأغراض اخر، والقصيدة الطويلة والمقطعات، التي يرى الدكتور احســـان عبـــاس ان هـــذه ((المقطعات القصيرة التي نظموها في وصف صنوف الازهار فبعضها يمثل (بطـــائق) المهـــاداة بـــين الاصدقاء، وليس لديهم من غاية فيها سوى طلب الصورة المبتكرة))[١٠].

لقد كان للطبيعة الاندلسية الساحرة أثرها الكبير في خصب عقولهم ورفاهية حسهم ورقـــة تصـــويرهم وسعة خيالهم، فهذا الشاعر الكبير ابن خفاجة الذي كان مدرسة خاصة في وصف الطبيعة ســـار علـــى منوالها من جاء بعده وتأثر فيها الكثير من معاصريه، يصف الاندلس وطبيعتها بقوله جاعلاً منها بعـــد ما سحرته جنة الله في ارضه[١١]:

يا أهل أنـــــــــــدلس لله دركـــــــــــــمُ ... مـــــــــــاءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ

مـــــــــــــا جنة الخُلد الا في دياركم ... لـــــــــــــو تخيرتُ كنتُ اختارُ

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ

ونراه يسم صورة بالوان زاهية قوامها الكلمات المعبرة التي يعجز ابرع الرسامين عن رسمها كما اراد

ابن خفاجة، فنسمعه يتحدث عن نهر متعرج في مسيره بين الاشجار والازهار التي تحف به حيث الروض الجميل وشمس الاصيل(١٢):

لله نهرٌ ســـال فـي بطحـاءِ ... أشهى وُروداً من لمَى الحســناءِ
مُتعـــطـــفٌ مـــثـــل السّوارِ كـأنه ... والزهرُ يكنُفهُ مَـجـــرَ سماءِ
قـــد رقّ حتى ظَـــن قَرصاً مُفرغاً ... مـــن فضةٍ فـــي بُردةٍ خضراءِ
وغدتْ تحف بـــه الغُصونُ كأنـها ... هُـــدبٌ يحـــفّ بمقلةٍ زرقـــاءِ
ولطالما عاطيتُ فـــيـــه مُدامةً ... صفراء تخضِبُ أيـــدي النّدماءِ
والريحُ تعبثُ بالغصون وقد جرى ... ذهبُ الاصيل على لُجينِ الماءِ

إنّه الابداع بكل معنى الكلمة، شيء من الخيال الخصب الذي يتمتع به الشاعر الاندلسي جسّده واقعاً ابن خفاجة في وصفه الذي يسحرك فيأخذك الى ارض الاندلس الجميلة لترى ذلك النهر والروض والازهار في رحلة خيالة تتمنى معها ان تكون واقعية.

وليس بعيداً عن هذا المزج المادي والوجداني ما قاله ابن زيدون في قصيدته في الزهراء التي عاد اليها مستخفياً بعد فراره من قرطبةومنها أرسل هذه القصيدة الىمعذبته ولاّدة(١٣):

إنـــــي ذكرتكِ في الزهراءِ مشتاقا ... والأفق طلقٌ ومرأى العين قـــــد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فـــــــي أصائله ... كأنه رقّ لي فاعتلّ اشـــــــــــفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ ... كما شققتَ عن اللبات أطـــــــــواقا
نلهو بما يستميل العينَ مـــن زهرٍ ... جال الندى فيه حتى مال اعـــــــناقا
كـــــــأن اعيـــنه اذا عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقـــــــراقا
وردٌ تألق فـــــــي ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين اشراقا
ســـــــــرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ ... وسنانُ نبه منه الصبح احـــــــداقا
كلٌ يهيج لـــــــنا ذكرى تُشوقنا ... إليكِ لم يعد عنها الصـــدرُ أن ضـاقا

انها الطبيعة الساحرة التي تتفاعل مع الشاعر فيشركها في معاناته وتبادله الاحساس والشعور متفاعلة معه ومع معاناته ومشاعره، فكانت الخليل الذي يستمع ويحاور ويتألم ويتفاعل مع الشاعر، هكذا هي الطبيعة الاندلسية في الشعر الاندلسي صاحبة وخليلة وملجأ يهرب اليه الشاعر من وحدته فيتشارك معها الافراح والاحزان، لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز اثرها الشعراء العرب الى شعراء الطبيعة الغربيين الذين يربطون بين البيعة والحب(١٤).

ويمكن ان نرى ذلك المزج واضحاً في القصيدة الخالدة لابن خفاجة في وصف الجبل، إذ جعله معادلاً موضعياً لانفعالاته ومعاناته ووحدته ويأسه واستثقاله الحياة، فشكى له وبادله الحديث والاستماع(١٥):

بعيشكَ هل تدري أهـــوجُ الجنائبِ ... تخُبّ برحلي أم ظَهورُ النجـــائبِ
وحيداً تهاداني الفيافي فـــأجـــتلي ... وجوه المنايا في قناع الغيـــــاهبِ
وأرعنَ طـــــــماح الذّؤابـــة باذخ ... يُطاول أعناق السماء بغـــــارب
وقور على ظـــــــهر الفلاة كأنه ... طوال الليل مفكرٌ بالـــعـــــــواقب
اصخت اليه وهو اخرسُ صـامتٌ ... فحدثني ليـــــل السرى بالعجائبِ
وقال: ألا كم كنت ملجأ قـــــاتلٍ ... ومـــــــــوطن أواهٍ تبتل تـــائبِ
فما كان الا ان طوتهم يـــد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائبِ
فاسمعني من وعظه كلّ عـــــبرةٍ ... يترجمها عنه لسانُ التجـــــاربِ
وقلتُ وقد نكبتُ عنـــــــه لطيةٍ: ... سلامٌ فإنا من مـــــــقيمٍ وذاهبِ

فيمكن ان نلحظ عنصر التشخيص واضحاً بقوة في هذه القصيدة وهذا هو التفاعل الذي سبق الاشارة

اليه، فالجبل يحاور ويستمع ويعظ، انه ابن خفاجة ذاته، انه الامتزاج الذوبان بين الشاعر والطبيعة انه التماهي الذي لا حدود فاصلة له، وما اسقاطات الشاعر الا تعبير عن مدى الحزن واليأس والوحدة الذي عان منه ابن خفاجة في اخريات ايامه بعد رحيل اصحابه دون رجوع انه الموت الذي حاول ابن خفاجة ان يقنع نفسه بمواجهته مما يعكس خوفه مما ينتظره وما اقناع نفسه بحتميته الا لشحذ الهمة في مواجهة المصير المحتوم، الذي لا فرار منه وهذا ما حاول ان يثبته في بيته الاخير((**سلامٌ فإنا من مـــــقيمٍ وذاهبِ**)) فهي حقيقة ثنائية الحياة والموت، التي اراد ابن خفاجة ان يتوصل اليها في ختام قصيدته، وما بكاء الشاعر على رحيل صحبه الا بكاء على نفسه قبل رحيلها، انه رثاء للذات وبكاء عليها.

ومن الاغراض المهمة التي ادخل فيها الشاعر الاندلسي الطبيعة ممزوجة معه غرض المديح، فرسموه بالوان الطبيعة التي تقدمته، من ذلك قول ابن خفاجة يخاطب ابا بكر بن الحاج[١٦]:

لذكراكَ ما عـــــــــبّ الخليجُ يُصفّقُ وباسمكَ ما غنّى الحمامُ المطوّقُ
ومن أجلك اهتزّ القضيبُ على النقا واشرق نوّارُ الـــــــــــــربى يتفتقُ
وما ذاك الا أنّ خُلقكَ رائـــــــــقٌ يُهزّ كما هُـــــــــزّ الرحيقُ المُعتّقُ

وذهب الشاعر الاندلسي مع الطبيعة الى ابعد من ذلك فادخلها ضمن غرض الرثاء البعيد عن وصف الطبيعة وموحياتها، من ذلك قول ابن حمديس الصقلّي يرثي جاريته جوهرة (ام ولد) ماتت غريقة في المركب الذي عطب به في خروجه من الاندلس الى افريقية[١٧]:

أيا رشاقة غصن البان ما هصـــــركْ ويا تألف نظم الشمل مـــــــن نثركْ؟
ويا شؤوني، وشأني كُـــــلهُ حَـــــزنٌ فَضي يواقيت دمعي واحبسي دُررِكْ
ما خلتُ قلبي وتبريحي يُـــــقـــــــلبهُ إلا جناح قطاةٍ في اعتقال شـــــــركْ
لا صبر عنكِ وكيف الصبر عنكِ وقد طواكِ عن عينيَ الموجُ الذي نشركْ
أماتكِ البحرُ ذو التيار مـــــــن حسدٍ لما درى الدّر منه حاسداً ثـــغـــــركْ
هلا نظرتَ الى تفتير مقـــــــــــلتيها إني لا عجبُ منه كيف ما ســـحركْ
يا وجه جوهرة المحجوب عن بصري من ذا يقيكَ كسوفاً قد علا قـــــمركْ

انه البكاء على النفس قبل الغير، انه رثاء لذاته يفيض اسى ولوعة وحرقة فخوفه من ركوب البحر تجسد حقيقة بموت جوهرة فبكاها وهو بذلك البكاء يندب نفسه قبل ندبها، متخذاً من الطبيعة الادوات التي ساعدته على ايصال الفكرة من خلال الالفاظ الرقيقة والمعاني الرائقة الجميلة التي يمكن ان تنسجم ورثاء امرأة قريبة من القلب، فزاوج بينها وبين البيعة في صورة معبرة جميلة.

من ذلك قول ابن خفاجة يرثي الوزير ابا محمد عبد الله بن ربيعة[١٨]:

في كل نـــــــــادٍ منكَ روضُ ثناءِ وبكل خدٍّ فيك جدولُ مـــاءِ
ولكل شخصٍ هزةُ الغصن الندي غِبّ البكاءِ ورنةُ الـــمكّاءِ
يا مطلع الأنـــــــــوار إنّ بمقلتي أسفاً عليكَ كمنشإ الأنواءِ
وكفى اسى أنْ لا سفـــــيرٌ بيننا يمشي وأنْ لا موعدٌ لـلقاءِ

مما تقدم يمكن ان نلحظ ان الشاعر الاندلسي قد سيطرت الطبيعة عليه بجمالها وسحرته بصورها فلا ينفك يصفها ويتغنى بجمالها، فأسرته وسيطرت على اخيلته واخذت بلبه فلا يستطيع التخلص من اسره المحبب، والذي ميز شعر الطبيعة لديهم هو الجمع بين الوصف الوجداني والمادي، وهي ملمح يكاد

يكون عاماً في اغلب الشعر الاندلسي.

٢- رثاء المدن:.

انفرد الشاعر الاندلسي في ابداعه وتميزه في رثاء المدن التي سقطت بأيدي العدو، فكان تارة يستصرخ الاخوة والجيران ويشحذ الهمم ليهبوا لنصرتهم، واخرى يعيب عليهم تقاعسهم وتخاذلهم وانشغالهم عن الدفاع عن بلدانهم ويندب الاوطان. فيكاد الاندلسي ينفرد بهذا الموضوع وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع اندلسي خاص، فعد أبرز معالم الشخصية الاندلسية، وتفوق على شعر الرثاء عامة وعلى قصائد رثاء المدن في المشرق خاصة، والامر يعزى الى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثلها في المشرق، كما لم تكن بهذه السعة وعمق التأثير[١٩]، وليس معنى هذا ان المشرق لم يعرف هذا اللون ولكن التفوق كان للأندلس.

ويتمثل هذا الرثاء بالبكاء على مدن اندلسية سقت بأيدي ملوك الاسبان، بعد انشغال ملوك الطوائف بالملذات والترف والعناد، ويصور المقري هذه الحال بقوله: ((ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، الى ان طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع ... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ويحاربه في عقر داره، الى ان ضعفوا عن لقاء العدو...))[٢٠].

وهو يعد من اغراض الشعر الاندلسي الاصيلة لأنه نابع من صميم الواقع الاندلسي نظراً لما وقع في الاندلس من كوارث وويلات وتساقط الدول واحدة تلو الاخرى[٢١]، وقد كثر الشعراء الذين قالوا في هذا اللون من الرثاء فمنهم من اختص في رثاء الدول التي خربتها الفتن والاوضاع السياسية، ويبدو هذا واضحاً في عهد الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ)، ومنهم من اختص بالبكاء على عائلة حاكمة كان يدين لها بالولاء وهذا ما تمثل به شعر بعض الشعراء في عهد الطوائف ومنهم ابن اللبانة الداني في وفائه للمعتمد بن عباد وبكائه على زوال ملكه وحسرته عليه في اسره وندبه بعد موته، ومرثية ابن عبدون لدولة بني الافطس في بطليوس، وهناك من رثى الاندلس عموماً وبكى على زوال مدنها، ومن اشهر من قال في هذا الشاعر ابي البقاء الرُّندي وقصيدته في رثاء الاندلس التي ذاع صيتها وانتشرت في ارجاء المعمورة، ومنها قوله[٢١] وقد بداها بالحكمة:

لكل شيء اذا مـــــــــا تم نقصانُ ... فلا يُغر بطيب العيش انسانُ

هي الامور كما شاهدتها دولٌ ... من سره زمنٌ ساءته ازمـــــــــانُ

وهذه الدار لا تُبقي عـــلى احدٍ ... ولا يدوم على حـــــال لهـــا شانُ

ثم ينتقل في حديثه للتذكير بمن كان قبلهم واين حال حالهم واستقر امرهم عساهم يعقلون ويتفكرون وينهضوا لنجدة بلاد المسلمين وانقاذها:

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكـــــــــاليلٌ وتيجانُ

أتى على الكل أمر لا مـــــــرد له ... حتى قضوا فكان القوم ما كانوا

ويعرج بعد ذلك على جزيرة الاندلس ويصف ما حل بها مذكراً بمدنها وما امتازت به كل مدينة منها مستذكراً كيف كانت مصوراً اياها بما حل بها معاتباً امراء المسلمين على تقاعسهم وعدم نصرتهم

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ ب- المجلد ٤٤ - السنة ٢٠١٩

لإخوانهم المسلمين في الاندلس:

دهى الجزيرة أمرٌ لا عــزاء لـــــه ... هوى له أحد وأنهـــــــــد ثهلانُ
فأسأل بلنسية ما شـــأن مرسية ... وأين شابة بل أيـــــــــن جيانُ
وأين قرطبة دارُ العلوم فـــــــكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نزهٍ ... ونهرها العذب فياض ومـــــلانُ
يا راكبين عتاق الخيل ضـــامرة ... كأنها في مجال السبق عقبانُ
وحاملين سيوف الهند مـــــرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيـــــرانُ
وراتعين وراء البحر فـــــي دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌ وسلـــــطانُ
أعندكم نبأ من أهل أنـــــــدلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبانُ

انه عتاب وتقريع لمواقفهم المتجاهلة لكل ما حل بالأندلس من نكبات وويلات وهم كأنهم لا يعلمون بذلك، فامتزج المدح والتذكير بالعتاب والتقريع والوم بمقدرة فنية عالية تمكن فيها ابو البقاء من ايصال صورته، ولم يكتف بذلك بل عاد ليسمعهم صوت اهل الاندلس مذكراً اياهم بما كانوا عليه وما حال بدارهم اليوم:

كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنســـانُ
يا من لذلة قوم بعد عـــــــــــــزّهم ... أحال حالهم كفرٌ وطغـــــــــــيانُ
بالأمس كانوا ملوكاً فـــــي منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ
يا ربّ أمّ وطفل حـــــــــــيل بينهما ... كما تفرق اروح وابـــــــــــــدانُ
لمثل هذا يذوب القلب مـــــــن كمدٍ ... لو كان في القلب اسلام وايمانُ

انها الصرخة التي حاول من خلالها ايقاظ النائمين من غفوتهم وتحريك المروة الراكدة في اعماقهم مستثمراً الجانب الديني والشجاعة العربية والاقدام والبطولة لدى القادة المسلمين.

لقد وجه الدكتور مصطفى الشكعة ان جملة قصائد رثاء المدن والممالك الاندلسية اتسمت بسمات عامة هي[٢٣]:

١- عزا الشعراء اسباب سقوط الاندلس فيما عزوا الى الترف الشديد الذي انغمس فيه الاندلسيون وفساد الحكم وظلم الناس والجور والاستبداد.

٢- الحنين الشديد للمدن الساقطة.

٣- تنبيه العاطفة الدينية ممزوجة بالعاطفة الانسانية.

٤- استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين.

واشار الى سمات خاصة لم تكن لكل كل الشعراء:

١- اصناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر.

٢- رثاء الدول من خلال رثاء ملوكها.

وهذه السمات واضحة في اغلب قصائد رثاء المدن الاندلسية، وبهذا اللون اجاد الشاعر الاندلسي واثبت حضوره وبراعته وتفوقه وعدّ من الاغراض الشعرية الجديدة المطورة عن المشرق مع براعة اندلسية

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ب – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

خاصة.

٣ - الموشحات:.

الموشحات فنٌ اوجده الاندلسيون وبرعوا فيه وامتازوا، وصار علامة بارزة تشير اليهم وعنه اخذه اهل المشرق والغرب،وإذا ما عرّجنا على الدراسات النقدية القديمة التي قعّدت لأصول الموشح، فلا يفوتنا أن نثبت شيئاً قد يكون معلوماً لأغلب الدارسين في مجال الأدب الأندلسي، إن لم يكن لهم جميعاً، وهو أن الكتب النقدية القديمة قد أغفلت أو تجاهلت عن عمدٍ الكلام عن الموشحات كفنٍ له مقوماته وأصوله ومزاياه، غابنين حقه وحق منتجيه ومتلقيه، إشعاراً منهم بدنو مرتبته وانتقاصه عن بلوغ مرتبة الشعر العربي التقليدي، فـ ((تعد مصادر دراسة الموشح ضئيلة جداً بالمقارنة بما هو متاح للشعر الأندلسي من مصادر عربية بصفة عامة، والسبب في ذلك هو الموقف المتعالي للمؤلفين الأندلسيين الأوائل الذين اعتبروا الموشح بوصفه جنساً شعرياً نصف شعبي غير جدير بان تضمه مختاراتهم أو ترجماتهم أو مؤلفاتهم التاريخية،.... وليس هناك أدنى شك في أن الموشح قد حرم حق الدخول إلى حرم المجموعات الأدبية الكبرى التي يرجع إليها فضل تعريفنا بالشعر الأندلسي))[٢٤]،فلم يرتق عندهم إلى مرتبة الشرف التي تسمح لهم بإدراجه ضمن موضوعاتهم الأدبية ولا سيما الشعرية منها، متجاهلين انه ((كلام منظوم على وزن مخصوص ...))[٢٥] ، إلا انه ليس بمستوى الشعر التقليدي، فلا يذكره ابن بسام في (الذخيرة) إلا في عبارات متناثرة، ناصاً على انه لن يتعرض لها في كتابه لان ((أوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان، إذ أكثرها على غير اعاريض أشعار العرب))[٢٦]، فلم يفسح في ذخيرته مجالاً للموشحات. وهذا أيضاً موقف معاصره الفتح بن خاقان الذي سكت هو أيضاً عن ذكر الموشحات في كتابه (قلائد العقيان) ولم يشر إليها من قريب أو بعيد. ومن قبلهما ابن عبد ربه الذي تنسب له بعض المصادر نظم عدد من الموشحات ويذكر اسمه من أوائل الوشّاحين[٢٧].

وفي تعليله لهذه الظاهرة يقول غومس : ((إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنها بسبب طابعها الفولكلوري وازدواجها اللغوي الذي اكسبها صبغة الشعر الهجين جعلها شكلاً من أشكال الشعر معدود من الدرجة الثانية ... وهذا هو المغمز الذي نحس به في كل ما كتبه مؤلفو المصنفات الأدبية العربية أو معظمهم حينما يتحدثون عن الموشحة ... ولهذا فان مؤلفي تلك المصنفات والمختارات الشعرية قد تجنبوا إدراج الموشحات في كتبهم، وقد قيل في تفسير هذه الظاهرة أنها دليل على احتقارهم، غير أني اعتقد أن ذلك غير صحيح، فقد كان للموشحة قبول كبير في أوساط الشعب الأندلسي جميعه، غير انه ليس كل ما يعجب الناس هو الذي يعد جديراً بان يدرج في كتب المختارات بل وبان يأخذ طريقه إلى التدوين))[٢٨].

في حين يعلل الدكتور صلاح فضل سبب عدم إيرادها كونها ((أول جنس أدبي عربي يسمح بدخول الناس من غير البدو أبهاء الشعر دون حرج أو تكلف لهذا عانت الموشحات من النفي والاضطهاد وحرمت من دخول الموسوعات العربية الأولى))[٢٩].

ومع هذا كله اثبتت وجودها وسجلت حضورها فيما بعد كفنٍ له مقوماته التي عليها يرتكز واصوله التي منها اشتق ابن سناء الملك قواعده بعد ان نالت اعجابه واخذت بلبه فنسج على منوالها بعد ان قعّد لها.

وليس غريباً ان نجد مثل هذا العداء والمقاومة للموشحات فهذه هي حال اغلب محاولاتالتجديد ان لم تكن كلها، لا تجد لها طريقاً سهلاً تسلكه الا بعد مخاض عسير تصارع فيه موجات الاقصاء والتصدي، ولكن الاصيل منها هو من يثبت نفسه كفن له مقوماته واصوله، وهذه حال الموشحات الاندلسية التي استطاعت الصمود والانتصار في مواجهة التحديث واستطاع اصحابها اثبات وجودها في الاندلس وفي المشرق والغرب ايضاً.

انه استجابة لمتطلبات البيئة والمجتمع والذوق الرقيق الذي امتاز به اهل الاندلس، ويبدو ذلك واضحاً في الجزء الاخير منه (الخرجة)، وقد كان محور هذه الخرجات الغزل البسيط الذي لا يرد في القصائد التقليدية أو في بقية الموشح ((انه غزل يمثل بخفته روح الشعب الأندلسي وينقل أغانيه وموارد استحسانه، وتعبيرات نسائه وخطراتهن التي تكشف للرجال طبيعتهن عندما يبرزن أنوثتهن في مواقف متعددة وينتبذن من العفة مكاناً قصياً))[٣٠]، وهذا شيء لا نظير له في الشعر العربي، ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد ما ذكره ابن رشيق في معرض ما عابه النقاد على عمر بن أبي ربيعة، حين جعل الفتاة تتغزل فيه وهو مخالف لسنة الشعر العربي إذ ينقل ابن رشيق في هذا أن : ((العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة والمخاطبة، وهذا دليل كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم))[٣١]، والعجم في الأندلس هم ((أصحاب الأغاني الاسبانية التي استلهم منها الوشّاحون خرجاتهم وانه كان يرى في هذه الخرجات كما رأى النقاد في شعر عمر خروجاً على سنن الشعر العربي ومخالفة لأخلاق العرب))[٣٢].

ومن هنا خاض الوشاح الاندلسي ضمار التجربة والتجديد واستطاع اثبات الوجود والانتصار لتجديده، مع ملاحظة أن صورة المرأة التي رسمها الشعر العرب وارتضاها النقاد توجد أيضاً في الموشحة فيما عدا الخرجة[٣٣]، كل هذا ممكن أن يعكس لنا الأصل الشعبي لهذه الأغاني المقتبسة في الخرجة وهو ((مصدر شعبي يتمثل في أغانٍ تنشدها النساء في البيوت فيأخذ الوشّاحون والزجالون مطالعها، أو لازمتها التي تتكرر))[٣٤]، ويبنون موشحاتهم عليها.

ومع عناية الوشّاحين بالخرجات العامية فإنهم لم يستغنوا عن استخدام الخرجة المعربة في موشحاتهم، ويجعلون الموشح كله فصيحاً، وهذا ما فطن إليه النقاد أيضاً في إشاراتهم، وقد رفضها ابن سناء الملك لأنها قد فقدت عنده بلغتها الفصحى معنى الخروج من الإعراب إلى اللحن واعتبر الإعراب فيها خروجاً على قانون الموشح، ولكنه لم يلبث أن أجازها واعترف بها في تاريخ الموشح بل استحسن أن تكون معربة إذا وردت في موشح مدح وذكر الممدوح فيها، وأجازها أيضاً وان لم يذكر فيها الممدوح إذا كانت ألفاظها غزلة جداً، وأجازها أخيراً إذا كانت بيت شعر مشهور يأخذه الوشّاح فيجعله خرجة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ب – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

ويبني موشحه عليه[٣٥].

فلنستمع لموشحة ابن زهر الحفيد[٣٦] التي كثر الجدال حولها في محاولة لأثبات اصلها الى ابن المعتز في المشرق:

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناكَ وان لم تسمعِ

ونديم همت فـــــــــــي غرته

وشربتُ الراح من راحته

كلما فـــــــــــاق من سكرته

جلب الزق إلـــــــــــــــيه واتكأ وسقاني اربـــــــــــعاً في أربعِ

ما لعيني عشيت بالنـــــــــــظر

أنكرت بعدك ضوء القـــــــــــمر

واذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

الى ان يصل الى البيت الاخير منها:

كبد حرّى ودمـــــــــــــع يكـفُ

يعرف الذنب ولا يـــــعترف

أيها المعرض عمّا أصف

قد نما حبك عندي وزكا لا تقل في الحب اني مُدعي

فهذه الموشحة بما فيها من ابداع اختلفت عن فنون النظم التي سبقت هذا الفن في الادب العربي، واستطاع الاندلسي ان يسجل السبق بما انتج من موشحات اندلسية خالصة.

ولنختم بالاستماع الى موشحة ثانية لابن زهر خرجتها بيت شعر لابي تمام:

سلّم الامر للقضا فهو للنفس انفعُ

واغتنم حين اقبلا

وجه بدر تهـــــــــــــلا

لا تقل بالهموم لا

كل ما فات وانقضا ليس بالحزن يرجعُ

واصطبح بابنة الكروم

من يدن شادن رخـــــــــــيم

حين يفترّ عن نـــــــــــظيم

فيه برق قد اومضا ورحيق مشعشعُ

الى ان يصل الى البيت الاخير فيقول:

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ ب – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

ما تـــــرى حين اضعنا

وسرى الـــــركب موهنا

واكتسى الليل بالسنا

نورهم ذا الذي اضا ام مع الركب يوشعُ

الخاتمة:

وفي الختام وبعد هذه الجولة الممتعة والمفيدة في جنبات النظم الاندلسي الخالص يمكننا الوقوف على بعض النقاط التي يمكن ان تؤشر في خاتمة البحث، منها:

١- لقد سعى الانسان الاندلسي عموماً لمحاولات التجديد عن قصد وعمد في مختلف مجالات حياتـــه، الاجتماعية والثقافية، وهذا نتيجة طبيعية لما تميزت به الاندلس عموماً والشخصية الاندلســـية الســـاعية الى ذلك، بدعم مباشرة من البيئة الاندلسية التي ساعدته في ذلك، فضلاً عن الاخـــتلاط الحاصـــل فـــي الاندلس بين الاجناس والديانات والثقافات، كل هذا كان عاملاً ايجابياً في سبيل تحقيق التجديد.

٢- برزت الطبيعة كغرض خاصة في الشعر الاندلسي لما امتاز به وصفها من خصوصـــية اختلفـــت عمّا سواها من انواع وصف الطبيعة في الشعر العربي المشرقي، وتفاعل معهـــا الشـــاعر الاندلســـي تفاعلا صادقاً نتيجة تأثره بسحرها المباشر، فدخلت في مختلف الاغراض الشعرية في الانـــدلس ولـــم تختصر على غرض الغزل والوان اللهو وانما امتزجت مع مختلف الاغراض الاخرى كالمديح والرثاء الذي يعد من ابعد الاغراض الشعرية عنها.

٣- كان فن الموشح من ابرز الامور التي عكست رغبة الاندلسي في التجديد، فبرز كفنٍ لـــه اصـــوله وقواعده ومنشديه في الاندلس والمشرق، وكان مؤثراً كذلك في الادب الغربي باعتراف اصحاب ذلـــك الادب، ومع محاربته في أول الامر الا انه استطاع ان يثبت وجوده كفنٍ اندلسي اصيل.

الـــــهـــــوامـــــــش :.

١- اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري: ١٠٠.

٢- ظهر الاسلام: ٩٩/٣.

٣- الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه: ٦٥.

٤- بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس: ٢٧٦.

٥- الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه: ٦٦.

٦- في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية: ١١٢.

٧- اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري: ١١٦.

٨- الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه: ٨٦.

٩- التجديد في الأدب الأندلسي: ٣٦.

١٠- تاريخ الادب الاندلسي: ١٥٨/٢.

١١- ديوان ابن خفاجة : ١٣٣-١٣٤.

١٢- المصدر نفسه: ١٣-١٤.

١٣- ديوان ابن زيدون ورسائله: ١٦٢-١٦٤.
١٤- مقدمة ديوان ابن زيدون: ٩٩.
١٥- ديوان ابن خفاجة: ٤٧-٤٩.
١٦- المصدر نفسه: ٢١٧-٢١٨.
١٧- ديوان ابن حمديس ٢١٣-٢١٤.
١٨- ديوان ابن خفاجة: ١٨-١٩.
١٩- الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ٢٥٧-٢٥٨.
٢٠- نفح الطيب: ٤/ ٤٥٠.
٢١- التجديد في الأدب الأندلسي: ٥٨.
٢٢- ديوان ابي البقاء الرندي: ٢٣١.
٢٣- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ٥٦٠-٥٦١.
٢٤- الموشح الأندلسي / صمويل م. ستيرن: ١٤ – ١٥ .
٢٥- دار الطراز في عمل الموشحات: ٢٥.
٢٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١ / مج٢ /٢ .
٢٧- ينظر: المصدر نفسه : ق١/ مج٢ / ١ .
٢٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي ١٩٩٩ : ٦٥ – ٦٦ .
٢٩- شفرات النص : ١٠٧ – ١٠٨ .
٣٠- الموشحات الأندلسية في عصر الموحدين،: ١٥٥ .
٣١- العمدة : ج٢/ ١١٨ .
٣٢- في أصول التوشيح : ١١٢ .
٣٣- ينظر: الزجل في الأندلس : ٤٤ .
٣٤- المصدر نفسه : ٧١ .
٣٥- ينظر : دار الطراز : ٣٠ – ٣١ .
٣٦- ديوان الموشحات الاندلسية: ٢/ ٧٦-٧٨.
٣٧- المصدر نفسه: ٢/ ١١٦-١١٧.

المصـــــــــــادر :

- اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية، ط١/ ١٩٩٠
- ظهر الاسلام، أحمد امين، مكتبة النهضة المصرية، ٤/ ١٩٦٦.
- الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه، د. علي محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، ١/ ١٩٨٩.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس في تاريخ رجال اهل الاندلس، الضبي ت ٥٩٩ هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨.
- في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر دمشق ٢٠٠٠.
- التجديد في الأدب الأندلسي، د. باقر سماكة، دار الجنان- بغداد، ط١/ ١٩٧١.
- تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د. احسان عباس، دار الشروق، عمان- الادرن، ط١/ ٢٠١١.
- ديوان ابن خفاجة، تحقيق عبد اله سنده، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط١/ ٢٠٠٦.

- ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق الاستاذ علي عبد العظيم، الكويت، ط٣/ ٢٠٠٤.
- ديوان ابن حمديس، تعليق د. يوسف عيد، دار الفكر العربي بيروت-لبنان، ط١/ ٢٠٠٥.
- الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. منجد مصفى بهجت، موسسة السياب لندن، ط٣/٢٠١٢.
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.
- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي ، اميليو غريسية غومس ،دماسوالونسو، ماريا خيسوسبيجيرا /ترجمة وتقديم د. محمود علي مكي / المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.
- شفرات النص دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد،د.صلاح فضل/دار الآداب، ط١ ١٩٩٩.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/ ج٢، ط٣، ١٩٦٤.
- في أصول التوشيح، د. سيد غازي/ دار المعارف، القاهرة/ ط٢ ، ١٩٧٩.
- الزجل في الأندلس، د. عبد العزيز الاهواني/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة/ ط٢، ٢٠٠٢.
- ديوان الموشحات الأندلسية، تحقيق د.سيد مصطفى غازي/الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩.
- ديوان ابي الطيب صالح بن شريف الرندي، تحقيق د. حياة قارة، دار الوفاء، ط١/ ٢٠٠٧.
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤/ ١٩٧٩.
- الموشحات الأندلسية في عصر الموحدين،د.محمد موسى خشبة ،دار الهاني للطباعة والنشر٢٠٠٢ : ١٥٥
- الموشح الأندلسي / صمويل م. ستيرن ، ترجمة وتقديم وتعليق ، د. عبد الحميد شيحة، الناشر مكتبة الآداب ،القاهرة /ط٢، ١٩٩٦
- دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، عني بتحقيقه ونشره ،د. جودة الركابي ،دمشق ١٩٤٩
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني ،تحقيق عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام /مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٢
- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي ، اميليو غريسية غومس ،دماسوالونسو، ماريا خيسوسبيجيرا /ترجمة وتقديم د. محمود علي مكي / المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.